الكلاسيكي مع ادخال كثير من التغييرات عليه، كاقحام شكل الحكاية داخل الحكاية أو اللوحات المنفصلة أو تداخل الشخصيات؛ وهي تقنيات جزئية تدخل في الاطار نفسه الذي خلقته الرواية البورجوازية، إلا أنه يتحرر منه في الروايات الأخرى ويعمد إلى أسلوب يعتبره أقدر على استيعاب اختياراته الفكرية وايصالها للجماهير، وهو شكل الرواية الملحمية؛ وهذا البناء لا يعتمد الحبكة المتصاعدة بل يرتكز على تركيب لوحات منفصلة توحد بينها الأرضية الاجتماعية أو الشخصية المحورية، وقد استعمل هذا البناء في روايتي: «العاشق» و«أم سعد»، ويوحي لنا ما بقي من «برقوق نيسان» أنها كانت ستتخذ البناء نفسه.

ومن خلال هذه اللوحة القصيرة عن بناء الروايات، نستخلص أنّ غسّان كنفاني لم يترك لنا شكلاً فنياً معيناً ولا بناء محدداً، وإنما ترك مجموعة تجارب فرضها عليه المحتوى المتنوع الذي تناوله ورغبته في أن يصوغ أفكاره في أشكال فنية لا تضيق عنها ولا تزيفها، ولذلك يمكن أن نعتبر أنّ الغاية في بحثه كانت محاولة ايجاد شكل يتماشى مع أفكاره وواقعه، ولقد عبّر عن رغبته في كتابة أدب واقعي ولكن الواقع المتشعب له أكثر من بعد، لذلك لم يستطع أن يستقر على بناء روائي واحد.

وفي المقومات الفنية الأخرى لرواياته، انعكست أيضاً رغبته في أن يكتب قصة «واقعية مائة بالمائة» كما ذكر فضل النقيب في مقاله «عالم غسان كنفاني»[٣] ولقد عبّر غسّان عن ذلك منذ بداية اهتمامه بالانتاج الأدبي ونستطيع أن نعتبر أن رغبته هذه تدلّ على اختبار فني واضح التزم به طوال حياته، وقد تجلّ أيضاً في ميله الخاص للاستماع الى شهادات العديد من أبناء شعبه ليتشبع أكثر بالواقع الحيّ، ونحن الآن سنواصل البحث لنعرف كيف استغلّ هذا الواقع في كتاباته الأدبية، أي كيف وظفه لخلق تعابير فنية ولنستمع إليه يحادث أحمد دحبور عن أم سعد فيقول: «خذ أم سعد مثلاً هي شخصية واقعية اسمها أم حسين، لماذا جعلتها أم سعد مع أني كنت أميناً في احداث حياتها؟ لعلي أردت اعطاءها على الورق فرصة أوسع[٤]. ان هذه الملاحظة، على بساطتها، تدلّ على مفهوم الأدب الواقعي عند غسان كنفاني. أو هي توضح لنا نظرته للعلاقة التي تربط واقع الحياة والأدب. لقد رفض غسان كنفاني أن يكون الأدب نسخاً للواقع أو اقتطاعاً منه، فهو مستقل عنه وإن كان «أميناً» في تصوير أحداثه، وهو يأخذ منه ولكنه يثريه. فلقد أخذ غسان من حياة أم حسين، ولكنه أعطاها فرصة أوسع للحياة في شخصية أم سعد، وكذلك فعل مع كلّ أبطاله؛ فهم من الواقع ولكنهم ليسوا منه فقط، بل ان غسان قد غذاهم بحنان ورعاية وأعطاهم من فهمه وتجربته الشيء الكثير. وعندما نستعرض شخصية غسان كنفاني نجد فيها الشيخ والصبي والرجل والمرأة والعامل والعاطل والمثقف والجاهل، وهي شخصيات نراها حولنا يومياً ولكن عندما نتعمق نجد أنها تتجاوز هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون حولنا. ففي تحديد قسماتها، وفي تطوّر نفسيتها، ما يجعلها تجمع مئات الأشخاص فهي تتمتع بثراء نفسي يتجاوز الفرد الواحد، ولها علاقة في التحرك والتعبير لا يمكن أن يتمتع بها شخص حقيقي، وهي بهذه الميزة تستطيع أن توضح ما هو غامض فيه وأن تفضح تناقضاته وتفتح امكانات لتجاوزها، وهي من هنا تكون نماذج تعكس مجموعات واسعة، ولكنها تتفاوت في أبعادها وفي اتساع المجموعة